وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠/١١/٢٠٠٩م

نقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى سورة سماها الله تبارك وتعالى سورة الفجر، يقول فيها سبحانه:

{وَالْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ، فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا، كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ، يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ١-٣٠]

إنها سورة من السور المكية، ونلاحظ فيها أنه تبارك وتعالى يُقسم بقَسَمٍ ثم يلفتُ الانتباه إلى أن هذا القسم يحتاج إلى شيء من التدبّر حين يقول: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} والحِجر: العقل، فهل في ذلك القسم تفكّر لأهل التفكر، وتدبّر لأهل التدبر؟ وهل سيُفهَم هذا القسم؟

وربّنا تبارك وتعالى أقسم في كتابه العزيز بالضحى، وأقسم بالعصر، وهاهنا يقسم بالفجر.

لكن الذي يلفت الانتباه في هذه السورة هو أنه يدعونا فيها إلى التدبر في قوله: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} فهو يطلب منا أن نُعمِل عقولنا، وأن ننفذ من الكلمة إلى ما وراء الكلمة.

والذي يقرأ هذه السورة متأملاً من أولها إلى آخرها يجد أنها تُثبّت في الإنسان حقيقة الإيمان، وتزرع في قلب المؤمن الثقة بالله، وتضع فيه اليقين بوعده، وأنه سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره...

فمهما اشتدت الأهوال فإنه سبحانه وتعالى مُظهرٌ أمره.

لقد نزلت هذه السورة في مكة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه رضوان الله عليهم يعانون ويقاسون، فالبيئة المحيطة بيئة تؤذيهم وتحوطهم بالضرر والتضييق، ولا يشعرون بحريةٍ في إظهار الهوية، ولا بحرية في ممارساتٍ تتناسب مع عبوديتهم لله تعالى وحده.

لقد نــــزلت هذه السورة في وقتٍ كانت المحنة فيه شديدة.

وهكذا كان القَسَم من أوله باعثًا للأمل، فهم كانوا يعيشون ليل المحنة، فكان القسم.

وإن كان يَستعمل هذه العبارات التي تذكّر بدورة زمنية يومية، لكنه سبحانه وتعالى حين يقول: {هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} فإنه سبحانه يريد منّا الاعتبار.

فإذا رأيت الفجر تذكّرْ أن ليل المحنة الذي تعيشه سوف يأتي بعده فجرٌ يشقّ الظلمة.

وهكذا يَعتبر الإنسانُ بالشيء الظاهر أمامه من الأشياء في الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، ثم يستفيد اعتبارًا يتناسب مع وظيفته ودعوته وسيره إلى الله تبارك وتعالى.

فحينما يسمع من يقاسي الأذى والشدة والمحنة قولَه تعالى:

{وَالْفَجْرِ} فإنه يشعر بنوعِ أمل وهو يسمع بالفجر.

ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١] وكان قد جعل موعد الخلاص الصبح، وموعد نجاة المؤمنين الصبح.

وهاهنا قال سبحانه: {وَالْفَجْرِ} فأقسم سبحانه بالفجر، لكن الاعتبار في القسم أنه يقسم بأن فجر الحقّ سيطلع مهما طال ليل المحنة، ومهما طال ظلام الشدة، ومهما تآمر المتآمرون على دين الله، ومهما أراد الظالمون وأهل الفجور والفسوق أن يضيّقوا على الحق وأهله... فلابد من أن يشق الفجر يومًا ظلمة الباطل.

فهذا اعتبارٌ يؤخذ من ظاهر القسم، ثم ينفذ المؤمن الذي يعيش في وقت الشدة في هذا الليل ويتألم بباطنه، فيأخذ من هذا القسم اعتبارًا يزرع الثقة واليقين في قلبه.

وبعد ذلك وبين قولِه: {وَالْفَجْرِ} وقولِه: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} نجد قَسَمين: قَسمًا بالليالي العشر، وقَسمًا بالشفع والوتر.

و"**الفَجْر**"، و"**اللَّيْل إِذَا يَسْرِ**": ضدّان، وبينهما قوله تعالى: {وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} .

والعرب لا تستعمل فعل "يسري" إلا لمن يمشي في الظلام، وهذا تعبيرٌ إعجازيّ أردت وأنا أبحث في كتب التفسير أن أرى من يتنبّه إلى هذه الدقيقة الإعجازية العجيبة.

إذًا: يسري: أي يمشي في الليل، وأكثر المفسّرين فسّر قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} أي: والليل إذا يُسرى فيه، ولكن عندما أقول: (هذا مكان يُمشى فيه)، فهي عبارةٌ تختلف عن قولي: (المكان يمشي).

فاللغة العربية لغة دقيقة، والله سبحانه وتعالى يقول: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} فالليل يمشي في الليل، وهذه عبارة معجزة عندما يتأملها الإنسان يجد فيها إشارةً في الآية إلى الحالة الشديدة التي يمر بها أهل الإيمان.

ألم يقل سبحانه وتعالى في مثل هذه السورة في القرآن: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} [النور: ٤٠]؟

ألم يصوّر القرآن الكريم تراكميةً ظلامية تعتري الأرض، وتعتري الإنسان، وتعتري البلاد والعباد؟

وهاهنا يصوّر لنا ربّنا سبحانه وتعالى ليلاً يمشي داخل ليل، وهي عبارةٌ تشير في الاعتبار إلى شدة المحنة، وشدةِ ما تعيشه الأرض من المقاساة والمعاناة، فالذين يسيرون على الأرض ليل، وهم كقطع من الليل كما أخبر القرآن الكريم، والواقع الذي يعيشونه هو واقعٌ مضطرب يشكّل ليلاً آخر.

وعندما يمشي الليل في الليل فهذا يعني أن الظلمات تراكمية، بمعنى أن الإنسان تحوّل إلى ليل، وأن الواقع المحيط به ليل، فصار الليل يمشي في ليل، وهي أشدّ الأحوال التي يمكن أن يتصورها عقل.

لكنه سبحانه وتعالى مع ذلك يقسم بالفجر، وبين الضدين: (الفجر) و(الليل إذا يسر) نقرأ قَسَمين اثنين: قَسم بالليالي العشر، وقَسم بالشفع والوتر.

أما الشفع فإنه المخلوقات، قال تعالى: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} [الذاريات: ٤٩].

فالشفع المخلوقات، لأن وصف المخلوق أنه الشفع، فلا يمكن لمخلوق أن يخرج عن وصف الشفع، وأما الوتر: فإنه الله الذي لا إله إلا هو.

وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن نتنبه، وهو يذكر المخلوق والخالق، إلى الصلة التي يحتاج إليها المخلوق.

فحينما يذكر الشفع مع الوتر فإنه سبحانه وتعالى ينبّهنا إلى فقر المخلوقات وحاجتها إلى الله، وينبهنا إلى أن هذا المخلوق في وقت الفجر محتاجٌ إلى الله، وفي وقت الليل إذا يسري محتاجٌ إلى الله، وحينما يستغني الشفع عن الوتر سوف يقع في الليل إذا يسري، وحينما يلتجئ الشفع إلى الوتر فإنه لا بد سيعيش أو ستعيش الأجيال اللاحقة التي يهيئ لها حالةَ الفجر.

فالشفع والوتر: المخلوقاتُ وخالقها، ولا يحل لأحدٍ أن يقسم بالمخلوق إلا الخالق، فالمخلوق يقسم بالخالق، أما الخالق فإنه يقسم بما شاء.

وجاء بعدها بعبارة الليالي العشر، والليالي العشر اختلف المفسرون في تحديدها:

فقال بعضهم: هي الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان.

وقال بعضهم: هي العشر التي نعيشها الآن، أي: العشر الأُوَل من ذي الحجة التي تسبق الحجّ.

وقال بعضهم: هي العشر الأولى من السنة التي آخرُها يوم عاشوراء.

ولكننا ونحن نستعرض هذه السورة نجد دلالة الليالي العشر لا تشير إلى تخصيصٍ بمقدار ما تشير إلى تعميمٍ، لأنه لم يتحدث عن عاد وحدها، ولم يتحدث عن ثمود وحدها، ولم يتحدث عن فرعون وحده، لكنه أتى بالنماذج مشتركة في الوصف.

فالليالي العشر: عشرُ ذي الحجة، والعشر الأخير من رمضان، والعشر الأولى من شهر المحرم...

وكما أن وجوه التفسير ثلاثة – وربما يكون للإنسان في أي وقت ليالٍ عشر يلتجئ فيها إلى الله، ويستعين فيها بالله، وينقطع فيها عن سواه – كذلك جاء القرآن الكريم بالنماذج المتعددة من أجل أن يصرفنا عن التخصيص إلى التعميم الذي ينبه إلى الوصف فقال: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ}.

نعم، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في عشر ذي الحجة هذا الذي نعيش ظرفه قولَه صلى الله عليه وسلم كما يروي الترمذي: (**ما مِنْ أيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهنَّ أحَبُّ إلى اللّه تعالى مِنْ هَذِهِ الأيَّامِ العَشْرِ**).

وورد في الحديث الذي أخرجه البخاري رحمة الله عليه في صحيحه: (**ما العَمَلُ في أيَّامٍ أفْضَلَ مِنْها في هَذِهِ، قالوا: وَلا الجِهادُ فِي سَبيلِ اللّه؟ قال: وَلا الجِهادُ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بنَفْسِهِ وَمالِه فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**).

لكنني أصارحكم وأقول:

الليالي العشر الأخرى ورد فيها أحاديث أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، لكنني أتساءل:

بالنسبة لما ورد في هذه الليالي العشر عشرِ ذي الحجة: هل هي خاصّة بالحاجّ أم أنها عامّة لكل الناس؟

أقول: الله ورسوله أعلم، فقد تكون خاصة بالحاجّ لأنه يعيش في هذه الليالي العشر حالةَ ظهور إخلاص، وحالة صدقٍ في التوجه، وغيرُ الحاجّ مشغولٌ بالأشياء.

فالحاجّ في هذه الليالي لا شأن له ولا شغل إلا أن يكون واقفًا عند بيت الله العتيق مستغرقًا في حضرة الواحد سبحانه، وحالٌ كهذا الحال لا يرقى إليه المشتغلون بالأشياء الذي يقولون: شغلتنا أموالنا وأهلونا.

وكأني ألمح في هذه الأحاديث التي تشير إلى فضل هذه الأيام أنها تختص بالحاجّ، إلا أن الله سبحانه وتعالى أعطى الأمة كلها خصوصية لم يعطها للحاجّ، وهي صومُ يوم عرفة، إذ يُكره صومه للحاجّ، لكنه خصوصيةٌ لمن لم يُقدّر له ربّنا الحجّ.

فقد جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أبي قتادة مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

(**صيام يوم عرفة: إني أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده**).

وكما يعود الحاجّ مولودًا من جديد فقد خصّ الله سبحانه بكرمه وفضله وإنعامه أمةَ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بفضيلة عظيمة ينفرد بها غيرُ الحاجّ ويُكره للحاجّ أن يفعلها، فقد أُتي النبي صلى الله عليه وسلم وهو في عرفات يومَ عرفة بشراب من أجل أن يعلموا هل هو صائم، فشربه صلى الله عليه وسلم، فدلّ فعلُه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في عرفات يوم عرفة أن الأفضل للحاجّ أن يكون في هذا اليوم مشغولاً بما أُمر به، وأن يترك عبادة الصيام لغيره من الذين لم يَقسم لهم ربّنا سبحانه وتعالى الحجّ هذا العام.

وأعود إلى حيث بدأت وأقول:

عندما يُقسم الله سبحانه بالفجر، ثم يتبع ذلك بالليالي العشر – وقصة الليالي العشر قصةٌ متكررة قد ذكرها القرآن، فقد قال سبحانه: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [الأعراف: ١٤٢] – وكأن الإنسان مهما درس العلوم الشرعية، ومهما حاز من الأعمال، يحتاج إلى انقطاع، ويحتاج إلى مدة يفرِّغ فيها سرَّه، ويفرِّغ فيها باطنَه من كل العلائق، ويكون في هذه العلائق قبل العشر قائمًا بما أُمر به من التكليف، أما العشر فإنها عشرة انقطاعية.

وكيف يمكن لعالمنا الإسلامي أن يعيش الفجر من غير الليالي العشر؟

وكيف يمكن لأمتنا الإسلامية، التي تعيش شتاتها، والتي تعيش فرقتها، والتي تعيش مناحراتها، والتي تعيش تسلّط أعدائها عليها... أن تعيش الفجر من غير الليالي العشر؟

وحتى واقع الحجّ، الذي كان فيما مضى مظهرَ وحدة ومساواة، كادت هذه الظاهرة أن تنتفي في وقتٍ عاش فيه الناس الحج من الدرجة (نجمتان)، والحج من الدرجة (خمس نجوم)، والحج من الدرجة (سبع نجوم)... وأصبحت القصور إلى جانب الخيام، وانتفى ما كان في الماضي من وحدة الأمة الإسلامية واللقاء المعرفيّ العلميّ.

لقد كان فيما مضى للحج قائد، واليوم لا قائد للحج، وحتى وإن وُجد صورةً فإنه مفقود اعتبارًا، وهو يمثل حالة الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها.

هذه الأمة بحاجة إلى الليالي العشر بمعناها لا بعددها، إنها بحاجة إلى الاستعانة بالله، وإلى الانقطاع إلى الله، وهي بحاجة إلى الشعور بأن الله تبارك وتعالى هو خير من سواه: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ٧٣] وهذه حقيقة نقولها بألسنتنا، لكننا في التطبيق العمليّ نقول غيرها، فنقول: الدنيا خير وأبقى، ونقول: المال خير وأبقى، ونقول: الأولاد خير وأبقى، ونقول: الأزواج خير وأبقى...

فلا يمكن لنا أن نقول: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} ظاهرًا وباطنًا حتى نُثبت ذلك من خلال الحركة العملية التي يكون فيها الإنسان متوجهًا بصدق إلى الله.

هذه هي الليالي العشر التي رمزيتُها: الانقطاعُ إلى الله، ولا يمكن أن يزول فرعون وعاد وثمود وأشكالهم وأمثالهم حتى توجد حقيقة الليالي العشر في أمتنا، فإذا وُجدت حقيقةُ الليالي العشر عندها سوف ترى:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}

لكن الامتحان الذي يمر الإنسان به هو أنه مشغول بالأشياء، فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى لُعاعةً من الدنيا فاشتغل بها، وشغلته هذه اللعاعة عن ربه: {فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} .

فيتوهم أن إكرامه هو من خلال اللعاعة المادية التي أمسكها بيديه.

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} ويتوهم أنه حينما يفقد متعة الدنيا فإنه مُهان.

فأجابه الله: {كَلاَّ} صحِّح معادلتك أيها المؤمن.

{بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} فمصيبتكم أن الرحمة انعدمت من قلوبكم، ولو وجدت الرحمة في قلوبكم لأكرمتم اليتامى.

واليوم لا نجد في أمتنا الإسلامية رعايةً ولا كفالةً لليتيم، فهي من السنن المعطلة، وأما ما يسمى بدُور الأيتام فما هي إلا هروب وهزيمة، وما هي إلا بؤرة من بؤر الفساد.

ومن أراد أن يطّلع على الواقع الذي يعيشه أيتامنا فليبحث بحثًا اجتماعيًّا ليجد انتشار اللواط، وانتشارَ الاحتيال والخداع والغش، وليجد الانحرافات بكل أنواعها... لأن الله سبحانه وتعالى أراد لليتيم أن يكون في أسرة، لكننا مستكبرون ومعتزون بخصوصياتنا وغافلون عن عبوديتنا.

فالمرأة لا تقبل أن يدخل إلى بيتها غير ولدها، والرجل لا يقبل أن يدخل إلى بيته طفل صغير إلا من نسله، لأنه يعيش الـــ: "أنا".

لقد انتزعت الرحمة من قلوبنا، ونفخر بعد ذلك بالإسلام؟!

فأيُّ إسلامٍ هذا الذي نفخر به ونطبقه تطبيقًا صوريًّا لا قيمة له على مستوى قبوله عند الله؟

أين كفالة اليتيم؟

أين الأُسر التي تتوزع؟

ألفُ ألفِ يتيمٍ في مدينةٍ عددُها ملايين!!

وقد قلت مرارًا وتكرارًا: أبدلوا هذه المشاريع بمشاريع أخرى يمكن أن تحفّزوا من خلالها بعض العائلات الفقيرة إذا كنتم تصرّون على الطبقية.

فإذا كان الغني معتزًّا بغناه وماله، ولا يريد أن يُدخل إلى بيته يتيمًا، فليدخله الفقير طمعًا في مال الغني.

أكرموا الأُسَر الفقيرة المتعلمة، ولا أقول: الفقيرة الجاهلة، بل الفقيرة المتعلمة التي عندها علمٌ وأدبٌ وليس عندها مال، فأكرموها حتى ترعى يتيمًا، وإذا رعت أسرةٌ فقيرةٌ يتيمًا يكون هذا سببًا لغناها، فيحصل بهذا أمران: إثراء وغنىً للفقراء، وقيامٌ بكفالة اليتيم الذي يرى في الأسرة أبًا وأمًّا.

أما ما نعيشه اليوم من دُور أيتام ودُور عَجَزة... فهذه ثمراتُ الحضارة المادية الغربية التي بصقت علينا فأخذنا بُصاقها وجعلناه كحلاً لعيوننا، وجعلناه عطرًا لأجسادنا، وما هو إلا بصاق المادية المشغولة عن الإنسانية، والمشغولة عن الأخلاق، والمشغولة عن الأوصاف الرفيعة...

فلا قيمة لنا إلا بقِيَمِنا، ولا قيمة لنا إلا بحضارتنا الإنسانية، وأخلاقنا، وإسلامنا، وإيماننا...

هذا هو أنتم، فكيف يطلع الفجر؟

أنتم لا تتراحمون، فلماذا يطلع الفجر عليكم؟

أنتم لا تستحقون الفجر، بل عليكم أن تبقوا في الليل الذي يسري، وعليكم أن تبقوا في ليل يمشي في ليل.

أنتم لا تكرمون اليتيم... ولا رحمة في قلوبكم..

أنتم مستكبرون، ومخادعون، وإسلامكم صوريّ...

{وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} فأنتم تحرصون على الاستزادة من المادة، وتنسون حقوق المساكين، وإذا جاع جائعٌ فمَن حولَه آثمون.

واليوم يُعلن العالم المادي بوقاحة أن خُمس سكان الأرض من الجياع، وينعقد مؤتمر الجوع، وتقرر الإحصائيات أن خمس العالم جياع.

وهذا لا يكون في مجتمع الإيمان، ولا يكون في مجتمع التراحم، ولا يكون في مجتمع الإسلام..

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} فمقاصدُكم منحرفة لأنكم تحوّلتم إلى عبيدٍ للمال.

هذا هو واقعكم، وتنتظرون الفجر؟!

{كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} يومًا ما، كلُّ ما بأيديكم سوف يُدكّ، فتذكّروا ذلك حتى تعودوا إلى قِيَمِكم، وإلى أخلاقكم، وإلى حقيقة حضارتكم، وحتى تعودوا إلى ربّكم...

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} فقدم لحياتك أيها الإنسان قبل أن تقول: {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} .

{فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} ولماذا قال الله هذا؟

لأننا حينما نقول للناس اليوم: غيّروا، يقول كلُّ واحد: أُغيّر وحدي؟ المشكلة ليست مني، بل من غيري، هي من فلان.. هي من زيد.. هي من عمرو..

فقال له سبحانه: {فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} فالمطلوب أن تغيّر أنت.

غيّر نفسك، وغيّر سلوكك.

فالمطلوب إنما هو التغيير، وكفاك تعلّلاً واعتذارًا بغيرك...
وهكذا يفعل كلّ واحد منّا ويقول: المشكلة ليست مني، ولو أن الناس فعلوا لفعلت..
بل المشكلة فيك، ويومَ القيامة لا تزر وازرة وزر أخرى.
فكلٌّ سوف يحاسب بما فعل، ولن يكون اعتذاره مقبولاً حينما يتعلل بغيره.
وأما الفائزون في الامتحان الذين اجتازوا الامتحان بالعبودية لله سبحانه وتعالى وحده فيقال لهم:
{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ} فقد رجعتِ إلى ربّك في الدنيا، فارجعي إلى ربك الآن كما رجعت وأنت في الدنيا.
{رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي} .
هذه هي سورة الفجر التي هي سورة مكية كما قلت، وهي سورة مؤسِّسة، فقد نـــزلت قبل أن ينـــزل تشريع الحج، فتشريع الحج نـــزل في المرحلة المدنية.
وحينما يتمسك الإنسان بخصوصية الليالي العشر، وينصرف عن المفهوم العام الذي تقدمه السورة، والتي تريد فيه تغييرًا جذريًّا – فهي لا تريد تغييرات مرحلية، واليومَ نحن عُبّاد رمضان، وعبّاد عرفات، وعبّاد المكان والزمان والأشخاص – عندها ننصرف عن مقاصدنا، ونعيش حالةً من الضياع والإشغال.
وما الأيام التي مرّت ورأى فيها عالمنا الإسلاميّ ذلك الانشغال الشبابيّ بكرة القدم التي شُغل فيها الملايين والمليارات، ما هو إلا لصرف الشباب عن الوجهة التي يريد ربّنا سبحانه وتعالى لنا أن نتوجه فيها إليه، وتحولت إلى مشاحنات ومنازعات، وأصبح الذي يفوز في لعبة كرة القدم يتفوق على المخترع، ويتفوق على الصناع، ويتفوق على صانعي الحضارة، ويتفوق على الفاتحين... وكأن هذا الذي استطاع بقوة بدنه أن يُدخل الكرة في مرمى صديقه كأنه فتح بلاد العالم، ونشر راية الحق، وأقام العدالة...
إنها حالة تدعونا إلى مراجعات ومراجعات.. وقد كادت هويتنا تزول.
علينا أن نصحّح سلوكنا وفق الشريعة الإسلامية..
وعلينا أن نعيد إلى بواطننا ألقَها في صدق توجهها إلى الله تبارك وتعالى..
وعلينا أن نوازن بين اشتغالنا المادي وتوجّهِ قلوبنا، وأن نعتني بتعمير قلوبنا بالإيمان...
فإن نحن فعلنا ذلك لربما يطلع علينا الفجر.
رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.
أقول هذا القول وأستغفر الله.